

العرفانية و تلقي النص

مقاربة براون و يول و سبربر و ولسن أنموذجا

Cognitive Reception of Text

Brown, Yule, Sperber and Wilson's Approaches as a Model

ميرود سعاد

جامعة يحي فارس بالمدينة (الجزائر)، miroud.souad@univ-medea.dz

تاريخ الاستلام: 2024/09/30 تاريخ القبول: 2024/12/09 تاريخ النشر: 2025/01/31

ملخص:

يهدف هذا البحث إلى إبراز دور المتلقي في صنع انسجام النص. ويركز على أهمية السياق بأنواعه في تفعيل عملية التلقي، المتمثلة في الكشف عن دلالة النص و التوصل إلى مقصد المتكلم/ الكاتب. نريد أيضا شرح كيفية تلقي النصوص من الجانب العرفاني عند كل من "براون و يول" اللذين يركزان على عمل الذاكرة و السياق الاجتماعي والثقافي، و "سبربر و ولسن" من خلال نظريتهما "الملاءمة". تربط هذه النظرية الفهم و التأويل بالسياق، الذي يمثل فرضيات أو معلومات مخزنة في الذاكرة تستغل لتأويل نصوص جديدة. نعرض أيضا في هذا البحث كيفية معالجة المعلومات في الذهن حسب تيار المنظومية.

توصلنا إلى أن الحكم على انسجام النص يرتبط بالمتلقي المتخصص الذي يعتمد بشكل كبير على السياق، و هو ما يساعد على ضبط عدد التأويلات. السياق ليس معطى جاهزا، و لكن ينتج عن معالجة ذهنية للمعلومات المخزنة في الذاكرة و يتطلب التأويل جهدا ذهنيا.

كلمات مفتاحية: النص، السياق، المتلقي، العرفانية، الانسجام النصي، الذاكرة.

Abstract:

This research aims at highlighting the recipient's role in text coherence. It concentrates on the importance of context in the activation of the process of receiving texts in order to discover its meaning and the writer/ speaker's intention. We want also to explain how texts are received and interpreted from a cognitive view according to two studies. Brown and Yule's study which focuses on the role of the memory and the social and cultural contexts to interpret texts, and Sperber and Wilson's theory of text

relevance through their book *Relevance: communication and cognition* where they emphasize on context and its cognitive impact.

The study shows that the recipient makes the text's coherence relying on the context and thus limits the number of the text's interpretations. The context is related to the information stored in the memory and requires mental effort.

Keywords: text; context; text recipient; cognitive theory; coherence, memory.

1. مقدمة:

تتمثل وظيفة لسانيات النص في تحليل النصوص بوصفها كلا أو وحدة خطابية مترابطة نحويا و دلاليا وتداوليا، ويسعى التحليل للكشف عن العلاقات بين وحدات النص، و بالتالي الوقوف على أسباب اتساقه وانسجامه و الكشف عن مقصد منتج و غرضه/ أغراضه التداولية أو ما يسمى بالفعل الكلامي. و هذا يعني أن التحليل اللساني النصي ينظر إلى النص على أنه " تفاعل بين المبدع و المتلقي" (عفيفي، 2001، صفحة 47)، و هما طرفا العملية التواصلية كما أكد ذلك براون و يول في كتابهما "تحليل الخطاب"، و هذا لاعتقادهما بأن منتج النص (متكلم/ كاتب) هو الذي يملك المواضيع والافتراضات المسبقة، و المتلقي (مستمع/ قارئ) هو من يقوم بعملية التأويل و الاستدلال (Brown and Yule، 1984، صفحة 24) و يعكس التلقي والتأويل عمليات ذهنية معقدة تتدخل فيها الذاكرة وتعالج فيها المعلومات من أجل طرح فرضيات تساعد في تأويل النص. هذه العلاقة بين النص و المتلقي تقودنا لطرح إشكالية وظيفة المتلقي و دوره في انسجام النص، فكيف يصنع المتلقي انسجام النص؟ و كيف تفسر عملية تأويل النصوص من الجانب العرفاني؟ و ماذا يمثل السياق حسب النموذج العرفاني؟

إن طرح مثل هذه الإشكالية يهدف إلى تسليط الضوء على جانب التلقي العرفاني للنصوص، والتركيز على دور المتلقي، و أهمية السياق في فهم النص و التوصل إلى مقصد منتج، و بالتالي الكشف عن الفعل اللغوي. يشرح هذا البحث كيفية تلقي النصوص من الجانب العرفاني عند كل من براون و يول و أيضا حسب نظرية الملاءمة عند سبربر و ولسن من خلال دراسة نظرية تعتمد على المنهج الوصفي التحليلي.

2. الانسجام النصي:

يُدرس الانسجام بصفته معيارا من معايير نصية النص إلى جانب "الاتساق و القصدية و المقبولية و الإعلامية و المقامية و التناص" (عفيفي، 2001، الصفحات

85-86). يتعلق الانسجام بالتماسك الدلالي الموجود بين عناصر النص، بل هو "السمة الأساسية للمفهوم اللغوي للنص" (كلاوس، 2005، صفحة 21)، لأن الترابط الشكلي غير كاف لإنتاج نص قابل للتأويل، حيث يجب أيضا أن تترابط وحداته من حيث الدلالة. و يعرف ديبوغراندودريسler الانسجام بأنه "تشكيلة المفاهيم و العلاقات التي يستند إليها ظاهر النص" (دريسler و ديبوغراند، 1992، صفحة 27)؛ و المفهوم يعني المحتوى العرفي للنص، أما العلاقات فهي الروابط القائمة بين المفاهيم، وبالتالي يتحقق في النص نوع من الاستمرارية الدلالية يقوم المتلقي بإدراكها، و هذا يعني أن الاتساق ضروري في النص و لكن تتحكم فيه العلاقات الدلالية. لذلك جعل هاليداي و حسن تعريف النص مرتبطا بمفهوم الانسجام الذي يحيل إلى العلاقات الدلالية الموجودة داخل النص، حيث يعتمد تأويل أي عنصر في الخطاب على عنصر آخر فيه (Halliday and Hasan, 1976, p. 4).

و لابد أن يحتوي النص على قضية مركزية يتلقاها المتلقي الذي يحاول التوصل إلى موضوع النص المحوري أو بنيته الكبرى (عند فان ديك) و إن ظهر يحمل عدة قضايا، و يكمن دور المتلقي هنا في اكتشاف المنطق الرابط بين هذه المواضيع الفرعية. و تقوم البنية الموضوعاتية على مبدأ الاستمرارية و التوسع، حيث يفترض أن يحتوي النص عناصر تكرارية معروفة مسبقا هي التي تضمن انسجام النص، و عناصر جديدة تضمن نمو النص، وبالتالي استمراريته من خلال المسند إليه (theme) و المسند (rheme)، أو الموضوع و ما يقال عن الموضوع (Lundquist, 1980, p. 65). كما اعتبر (ميشال شارول) الاستمرارية شرطا لتحقيق انسجام النص من خلال عامل التكرار عبر وسائل لغوية مختلفة كالإضمار و التعريف و الإحالة المقامية و الاستبدال المعجمي (Charolles, 1978، صفحة 15). و يحتاج النص أيضا إلى تأسيس تداولي، لأن تلقي النص و عملية تأويله في موقف تواصلية يعتمد على شركاء التواصل و مقام التواصل ليصنع انسجامه.

1.2. أهمية السياق في صنع انسجام النص:

يبدو مفهوم السياق واسعا يشمل عدة عناصر داخل النص و خارجه، لكن المؤكد ضرورته في فهم النص من قبل المتلقي و حتى تحليله من قبل المحلل اللساني، فالسياق عند براون و يول يتشكل من "المتكلم/ الكاتب و المستمع/ القارئ و الزمان و المكان" (خطابي، 1991، صفحة 52). و يضيف فان ديك المعارف و المعتقدات و تركيب الجمل و غيرها (Dijk, 1977, p. 191). أما آدم (Jean-Michel Adam) فيميز بين ثلاث أنواع من السياق: السياق الخارجي و المحيط اللغوي المباشر و المعارف المشتركة (Adam, 2005, p. 26)؛ أما الأول فيشمل مقام التفاعل الاجتماعي و المكاني و الزماني، و أما الثاني فيعني سياق الوحدة اللغوية أي ما يسبقها

و ما يلحقها من وحدات، و أما المعارف المشتركة فتتمثل في معرفة العالم وكل ما يخترن في ذهن المتلقي من معلومات اكتسبها بالتجربة.

و قد أكدت مدرسة فيرث السياقية على أهمية السياق في إدراك المعنى حيث أن "المعنى لا ينكشف إلا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضعها في سياقاتها المختلفة، فمعظم الوحدات الدلالية تقع في مجاورة وحدات أخرى، و أن معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها" (الفقي، 2000، صفحة 106). فالسياق اللغوي يحدد معنى الكلمة و يساعد المتلقي على إعادة بناء النص من خلال اكتشاف المعنى المقصود. و قد استعمل فيرث أيضا مصطلح "سياق الحال" أو المقام للدلالة على الكلام في المحيط الذي يقع فيه، فالمجتمع هو من يقوم بإنتاج النص وهو من يتلقاه، لذلك هو الذي يقوم بتحديد دلالة النص من خلال هذه البيئة الاجتماعية.

و للسياق دور هام في تأويل النص، فقد يُفسّر النص نفسه عدة تفسيرات حسب تعدد السياقات، فعبارة "الساعة 12/ منتصف النهار"، قد تعني الإخبار عن الوقت لمن يسأل عن الساعة، و في قاعة امتحان قد تعني الإعلان عن نهاية وقت الامتحان و ضرورة تسليم أوراق الإجابة، كما قد تعني موعد الغداء وتقال لمن تأخر عن موعد قبل الساعة 12؛ هذا يعني أن للسياق دورا مزدوجا حيث يحصر مجال التأويلات الممكنة و يدعم التأويل المقصود (خطابي، 1991، صفحة 52)، وهذا ما يسمى عند براون ويول بمبدأ التأويل المحلي.

و يستفيد المتلقي من تجاربه السابقة أو الاطلاع على نصوص سابقة مماثلة، أو التراكمات المعرفية المتعلقة بالنصوص المختلفة كمعلومات متعلقة بالشعر و الخطابة والقصص و غيرها، حيث تشكل لدى المتلقي عادات تحليلية و فهمية لمواجهة النصوص تمكنه مع الممارسة إدراك الاطرادات عن طريق التعميم، كما تُنمّي التجربة السابقة لدى المتلقي القدرة على التوقع (خطابي، 1991، الصفحات 57-58) وبالتالي التأويل الصحيح للنص، وهذا يسمى عند براون و يول بمبدأ التشابه.

و يعتمد المتلقي أيضا في فهم الخطاب على المعرفة الموسوعية أو معرفة العالم التي يكتسبها جراء الاحتكاك الفعلي ببيئته الاجتماعية ما تعرف أيضا "بالذاكرة البعيدة والذاكرة القريبة" (فيهقجريدتر و فولفجانج، 2004، صفحة 105).

إن يفتح الخطاب أمام المتلقي عدة تأويلات يقوم السياق بحصرها و عدم الإحاطة بالسياق تبعد المتلقي عن المعنى المقصود. و هذا يقودنا للتساؤل عن كيفية استدلال المتلقي على المعنى.

3.فاعلية دور المتلقي في فهم النص:

مع الانتهاء من إنتاج النص يأتي دور المتلقي لفهمه و تأويله، إنه "يتشكل مع القراءة الواعية والتحليل الهادف" (خطابي، 1991، صفحة 47)، و قد تتوافق أهداف منتج النص مع رؤية مستقبلها كما يمكن ألا تتوافق، بحسب المعرفة القبلية للقارئ

الذي يقوم بإعادة بناء النص وفق ثقافته وتجاربه السابقة ووفق تطلعاته و أفق انتظاره، حيث يقوم بالكشف عن العلاقات الخفية التي تنظم مكونات النص و ملء فراغاته بهدف التوصل إلى الرابط المفهومي داخل النص باستغلال السياق اللغوي و السياق الحالي، و بالتالي التوصل إلى الفعل الكلامي الكلي للنص الذي يعكس مقصد منتجه أو الغرض من إنتاج النص ككل.

من هنا يظهر دور المتلقي في تبين قيمة النص الدلالية و التداولية من خلال صنع انسجامه و الكشف عن الوسائل المحققة لترابطه الدلالي، و ربط معانيه بالسياق الذي يعتبر ضروريا لعملية الفهم والتأويل. هذه الفكرة تطرح إشكالية الانسجام النصي و علاقة النص بالمعطيات الخارجية، أي أن للنص بعدين: داخلي يتمثل في الاتساق و الانسجام و بعد خارجي يربط النص بالمرسل والمتلقي والسياق الزماني و المكاني(بن عروس، 1999).

فالنص رسالة يحاول منتج النص إيصالها إلى مستقبلها، الذين تقع على عاتقهم مهمة انسجامها، فالانسجام ليس معطى جاهزا في النص و إنما يقوم المتلقي بصنعه، أي "ليس هناك نص منسجم في ذاته ونص غير منسجم في ذاته باستقلال عن المتلقي، بل إن المتلقي هو الذي يحكم على نص بأنه منسجم وعلى آخر بأنه غير منسجم"(خطابي، 1991، صفحة 51).

يعتبر جوندو (Jean-François Jeandillou) المتلقي العنصر الوحيد المخول له الحكم على ملائمة النص لسياق التلفظ، و يمس حكمه الفعل الكلامي في حد ذاته، الذي يعتبر منسجما أو لا حسب توقع المتلقي(Jeandillou، 1997، صفحة 81).

إذن لابد من توفر جميع أطراف التواصل من أجل تأويل النص تأويلا مناسباً. و لنأخذ المثال الآتي:

(1)

(أ): أتبحث عن شيء ما؟

(ب): محفظتي.

يقوم هنا (أ) بإيجاد سبب انسجام جواب (ب) و مناسبته للسؤال من خلال إيجاد المحذوف في التركيب وهو الفعل (أبحث عن).

كما تعتبر الجملة "الأكل الكثير و قلة الحركة يسببان المرض" منسجمة لا بفعل التلفظ ولكن باشتغال المتلقي على سياق ورودها، كأن يقال أمام شخص يحب الأكل الكثير أو تقدم كنصيحة لمرريض يعاني الأمراض كالسمنة أو السكري أو غيرها من السياقات.

هذا إذا كان التواصل شفويا يشترك فيه المرسل و المتلقي في الشروط الزمانية والمكانية لسياق التلفظ، لكن الإشكال يتعلق بالنصوص المكتوبة التي تشترك في سمة غياب الحضور التفاعلي (المباشر) للكاتب والمتلقي. فنحن نتعامل بشكل يومي مع

النصوص المكتوبة، نقرأ كتباً و جرائداً و لوحات إشهارية وملصقات و رسائل إلكترونية... تم إنتاجها في زمان و مكان مختلفين عن زمان و مكان التلقي، هذا يعني أن عملية إنتاج النص و استقباله لم تعد تجري استناداً إلى التفاعل المباشر، بل تعاقبياً، مما يفرض احتمال وجود عدة متلقين غير معروفين في أزمنة مختلفة، إضافة إلى غياب التعاون الموجود بين المتكلمين والمستمعين و كل ما هو غير لغوي في عملية التواصل كالنبر والإيماءات و تعبيرات الوجه، و"هذا لا يعني عدم وجود العلاقة التفاعلية لأنها تتحقق أيضاً عند التعامل مع النصوص المكتوبة حيث يعتبر المتلقي القراءة الثانية للنص ومشاركاً في النص و تعد ممارسة القراءة إسهاماً في التأليف و تشكيل المعنى"(الفقي، 2000، الصفحات 110-111). و لنأخذ المثال الآتي:

(2)

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ 14 الله يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمْدُحُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ 15﴾ البقرة/14-15 فالقارئ للآيتين يستشعر انسجامهما و إن غاب الرابط الظاهر و هو العطف، لأن الرابط هنا تم على المستوى المفهومي أو الدلالي. يقول الزمخشري في هذه الآية " هو استئناف في غاية الجزالة والفخامة، وفيه أن الله عز وجل هو الذي يستهزئ بهم الاستهزاء الأبلغ الذي ليس استهزاءؤهم إليه باستهزاء، ولا يؤبه له في مقابلته لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الهوان والذل، وفيه أن الله هو الذي يتولى الاستهزاء بهم انتقاماً للمؤمنين، ولا يحوج المؤمنين أن يعارضوهم باستهزاء مثله" (الزمخشري، 2009، صفحة 49)، و لو كان في غير موضع القرآن الكريم لكان 'فالله يستهزيء بهم'.

قد لا يتوصل المتلقي العام للقرآن الكريم إلى فهمه و يحتاج الأمر إلى متلق متخصص يتوصل إلى وجود رابط بين الآيتين اعتماداً على تجاربه و معارفه السابقة (قراءات المتلقي السابقة أو ما سمعه عن أئمة و علماء في التفسير) . هذا يجعلنا نفكر في الجمهور المقصود عند إرسال النص، أهو متخصص أو عام، ونسأله أيضاً عن الكيفية التي يتم بها تلقي النص و فهمه أو صنع انسجامه وبالتالي التوصل لمقصد منتجه.

4. التلقي العرفاني للنص:

ذكرنا فيما سبق أن الانسجام بينيه المستمع/ القارئ اعتماداً على معطيات لغوية وباستغلال تجاربه السابقة و معرفته للعالم، و هي بالتأكيد عملية ذهنية معقدة تعتمد على الاستدلال و تُستغل فيها مختلف السياقات للتوصل للمعنى المقصود. و فيما يلي نعرض لمقاربتين تشرح كيفية تلقي النص عرفانياً، تتعلق الأولى باقتراح براون و يول، و الثانية بنظرية الملاءمة لسبربر و ولسن.

1.4. كيفية تلقي النص عند براون و يول:

ينطلق المتلقي حسب براون و يول من افتراض اتساق النص و إن غابت الروابط الشكلية فيه، ووجود التجاور بين السلاسل اللغوية في النص تجعلنا نؤولها كما لو كانت مترابطة (Adam، 2005، صفحة 224) ويقوم المتلقي بتوفير الروابط الضرورية لفهم النص، و هذا الافتراض يقودنا إلى افتراض انسجام النص، ويعتمد الأمر هنا على الجهد الذي يبذله المتلقي لأجل التوصل إلى المعنى المقصود. و لأجل التوصل إلى التأويل الصحيح و إضافة إلى افتراض الانسجام، يستعمل المتلقي مبدأي التشابه (Analogyprinciple) و التأويل (local interpretation) والسمات العامة للسياق، وبالضبط السياق الثقافي الاجتماعي. طبعاً قد يوجد احتمال وجود تخريجات أخرى للنصوص و تأويلات متعددة، ويحتاج الأمر إلى المتلقي المتخصص المحيط بالسياق الضروري لفك شفرة الرسالة. و لنأخذ المثال الآتي:

(3)

« voici le parc des princes des Arabes »

هي جملة قالها جندي فرنسي كان ماراً بمجموعة من الأطفال الجزائريين يلعبون كرة القدم بكرة مصنوعة من الأكياس البلاستيكية في ما يعرف الآن بساحة الشهداء، و هذا أثناء الاستعمار الفرنسي للجزائر. الذي يسمع هذه الجملة أو يقرأها بمعزل عن سياقها يحسبها وصفاً للمكان الذي يلعب فيه الأطفال أو اسمه، و لكن من خلال ربطها بسياق الفترة الاستعمارية و السياسة الفرنسية الظالمة و الممارسات العدوانية ضد الشعب الجزائري، يدرك أن هذا الجندي كان يسخر من الأطفال و لعبهم في مكان غير مخصص لكرة القدم. فالجملة تعني بالعربية "هذا هو نادي الأمراء العرب"، و من أجل التوصل إلى المقصد الحقيقي يحتاج المتلقي إلى معرفة أوسع، فنادي الأمراء موجود فعلاً في باريس وتمارس فيه كرة القدم، و هو ما يستدل به في أن الجندي كان يسخر لا يصف. و من هنا جاءت فكرة إنشاء نادي مولودية الجزائر التي كانت كفريق تنافس الفرق الفرنسية و تهزمها.

هناك خطابات مشفرة، لا يمكن لمتلق عام فهمها. إذن نحتاج إلى متلق من نفس الزمان والمكان يملك خبرة أو تجربة سابقة لمثل هذه الخطابات، أو متلق يملك معرف موسوعية و ثقافة تاريخية. متلق متخصص يملك معرفة و تجربة خاصة يخترنها ذهنه ويستدل بها وقت الحاجة. بحيث تختزن هذه المعرفة في الذاكرة وتمثل 'بنيات جاهزة' ما يسمى عند براون و يول بالإطار (Adam، 2005، صفحة 238)، و تدخل عملية الاسترجاع هذه ضمن وظائف الذاكرة، التي تقوم باستقبال المعلومات و ترميزها و تخزينها و استعادتها وقت الحاجة (العنوم، 2004، صفحة 129). يختار منها المتلقي ما يحتاج لمواجهته وضعية ما، فصورة منزل مثلاً أو مدرسة أو مسجد موجودة جاهزة في ذهن المتلقي يستعملها عند مواجهة هذه الكلمات في الخطابات حيث

يستدعي إطار المنزل أو المدرسة أو المسجد وليس إطار القصر أو الشارع أو الكنيسة.

إذن تتعلق عملية التلقي عند براون و يول بالذهن الذي يختزن المعلومات في الذاكرة وتحصل عليها بالتجارب الكثيرة التي عاشها، حيث يختار ما يناسب النص الذي هو بصدد تأويله دون أي خلط في استدعاء هذه المعلومات، و هذا يعني أن المعرفة مخزنة في الذاكرة "بطريقة منظمة وثابتة كوحدة تامة من المعرفة الجاهزة" (Adam، 2005، صفحة 236)، و ليس بشكل عشوائي. و في هذا السياق يتكلم العتوم (العتوم، 2004، صفحة 187) عن مفهوم تمثيل المعرفة و هو "عملية تحويل المثبرات و الخبرات المختلفة إلى معاني و أفكار يمكن استيعابها و و ترميزها و تسكينها بطريقة منظمة لتصبح جزء من البنية المعرفية للفرد".

إن عملية الفهم عند براون و يول هي عملية 'ذاكرية'، تسحب المعلومة من الذاكرة ويتم ربطها بالخطاب الذي يواجهه المتلقي. و تشمل المعرفة المخزنة في ذهن تجارب ومعلومات تلقاها المتلقي عن طريق البصر أو السمع أو باقي الحواس أو عاشها بمشاعره ووعيه (العتوم، 2004، صفحة 134).

2.4. بين التلقي و المناسبة: الإدراك و التأويل حسب نظرية المناسبة:

تركز نظرية الملاءمة/ المناسبة/ الحصافة على دور السياق في عملية التلقي و تسعى إلى تفسير الكيفية التي يتلقى بها المتلقي الخطابات المختلفة مركزين أيضا على الجانب المعرفي و بشكل أدق على عمل الذاكرة حيث يتم تخزين المعطيات اللازمة لتأويل الكلام.

انطلق سبربر و ولسن (Dan Sperber and Derder Wilson) من نقد بناء لنظرية غرايس حول الاستلزام الحواري، و أسسا نظريتهما على قاعدة من قواعد غرايس (Paul Herbert Grice) وهي قاعدة المناسبة. حيث يرى سبربر و ولسن أن قاعدة المناسبة تكفي لتتوب عن جميع القواعد الأخرى (Bracops، 2006، صفحة 104)؛ عن قاعدة الكم التي تقضي بأن تكون مساهمة المتكلم كافية غير ناقصة و لا يزيد عما هو مطلوب من المعلومات، و عن قاعدة النوع التي تفرض على المتكلم أن لا يقول ما يتطلب إثباتا، و عن قاعدة الطريقة التي تفرض على المتكلم التحدث بوضوح دون لبس أو إبهام. فقاعدة المناسبة تغني عن كل هذه القواعد، فهي تعني مناسبة الكلام لموقف الاتصال من حيث الكم و الكيف و الطريقة، الشيء الذي يساعد المتلقي للتوصل إلى المقصود من الكلام، و عدم إرهاقه بتفاصيل لا فائدة منها أو غير مناسبة للمقام أو غير واضحة و هو ما يلخص في لفظ التعاون عند غرايس.

تركز النظرية على مفهوم الأثر السياقي الذي يعتبر ضروريا في وصف عملية فهم وتأويل الخطاب، ففي لحظة سريان الخطاب، يقوم المتلقي باستدعاء معلومات مخزنة في ذاكرته أو بناء مجموعة من الفرضيات تساهم في معالجة المعلومة التي

يتلقاها. هذه الفرضيات تكوّن خلفية تتغيّر و تتعدّل تدريجيا وتستعمل لمعالجة المعلومة الجديدة. كما أن تأويل قول ما لا يتوقف عند معرفة الفرضية التي يعبر عنها بشكل ظاهر و لكن معرفة أثر هذه الفرضيات على المعلومات المعالجة آنفا.
و للأثر السياقي دور مهم في تعريف الملاءمة، فلكي تكون معلومة ما حسيّة يجب أن تمتلك أثارا سياقية، و كلما كانت الآثار السياقية كافية كانت المعلومة الجديدة أكثر ملاءمة. و تعالج كل فرضية جديدة ضمن سياق مكون من فرضيات معالجة حديثا (Sperber et Wilson، 1989، صفحة 182).
لنأخذ المثال الآتي الذي يقال لمتلق في زمن الحاضر:

(4)

في 7 جويلية 2022 كان الجو حارا جدا.
إن المعلومة المقدمة في المثال (4) لا تملك أثرا سياقيا في مجموعة الفرضيات الموجودة في ذهن المتلقي لحظة تلقيه هذه الجملة، و بالتالي ليست حسيّة، لأن هذا السياق لا يحدث استلزامات سياقية ولا يغير قوة الفرضيات الموجودة في ذهن المتلقي، و بالتالي لا يملك هذا السياق أي علاقة بهذه الفرضيات (معلومة عن الجو في زمن الماضي)، و المطلوب الإخبار عن حالة الجو في زمن الحاضر.
و قد يفقد السياق أثره لأسباب أخرى كأن يقال لمتلق:

(5)

أنت تكتب نصا.
فالفرضية المعبر عنها في المثال لا يمكن أن يكون لها أثر سياقي في الفرضيات الموجودة في ذهن المتلقي قبل تلقيه هذه المعلومة، لأن المتلقي هنا يعني تماما أنه يكتب نصا، و بالتالي فالفرضية الموجودة في القول لا تضيف شيئا جديدا إلى معرفة المتلقي. و الحالة الثالثة التي لا يكون فيها للفرضية الجديدة أثر سياقي تتعلق بحالة التناقض كما هو مبين في المثال الآتي:

(6)

أنت تمارس الرياضة.
فلو قيلت هذه الفرضية للمتلقي السابق الذي كان يكتب نصا، لوجدنا تناقضا مع مجموعة الفرضيات الأكيدة التي كوّنّها المتلقي من المثال (5)، فهو يعلم أنه يكتب نصا و أنه لا يمكن أن يكون يجري أو يمارس أي رياضة أخرى و في نفس الوقت يكتب نصا، هذا يعني أن السياق الجديد لا يضيف شيئا بل يناقض السياق حيث يوجد المتلقي، و بالتالي ليس قولاً حسيّاً/ مناسباً.

من خلال الأمثلة الثلاثة نستخلص أن هناك ثلاث حالات لا يكون فيها لفرضية أي أثر سياقي: (Sperber et Wilson، 1989، صفحة 185)
• توفر معلومة جديدة في الفرضية و لكن لا يحتاجها المتلقي.

- لا تصنيف الفرضية الجديدة معلومة جديدة للمتلقي الذي يوجد في نفس السياق وهو الكتابة.
 - وجود تناقض بين السياق الموجود فيه المتلقي و الفرضية الجديدة و بالتالي لا يحدث أثرا سياقيا.
- و بالتالي كل تلك الأمثلة تفتقد لصفة الملاءمة/ الحصافة.

1.2.4. معنى السياق في نظرية الملاءمة:

ذكرنا أن المتلقي يقوم باستدعاء الفرضيات/ المعلومات الجديدة، هذا يعني أن السياق لدى سبربر وولسن ليس معطى جاهزا، و إنما "يبنى قولاً بعد قول" (موشلر و ريبول، 2010، صفحة 77)، حيث يستعمل كل قول سابق كسياق جديد يستغل لتأويل قول لاحق، و كل قول جديد يشتمل على معلومات جديدة. تساعد هذه المعلومات على اكتساب فرضيات جديدة تساهم بدورها في تحسين السياق من خلال إثبات الفرضيات القديمة الموجودة في ذهن المتلقي أو إضعاف الفرضيات القديمة، أو إلغائها في حالة التناقض.

و تمثل الفرضيات الموجودة في الذاكرة (المعرفة المشتركة بين الجماعة اللغوية) عنصرا فعاليا يساعد المتلقي في تكوين المعطيات التي تمكن من تأويل القول تأويلا مناسباً، أي أنها تساهم في الوصول إلى التضمينات التي يقصدها المرسل، كيف ذلك؟

تقدم الصيغة المنطقية للقول/ التركيب معلومات تمثل عناوين المفاهيم الموجودة في الذاكرة البعيدة و يقوم المتلقي بالبحث عنها هناك. تمكّن هذه العناوين المتلقي من التوصل إلى المعلومة الموجودة ضمن المفاهيم المخزنة (المعرفة)، و تمثل أساسا للاستدلال على المعنى المقصود. هذه المفاهيم/ المعطيات الأولية تنتمي إلى المعرفة المشتركة، و لكن يقوم كل متلق خارج المعرفة المشتركة بإضفاء السمة الفردية على معارفه. و لتوضيح دور السياق في تأويل الأقوال عند سبربر و ولسن نأخذ المثال الآتي:

(7)

(أ) هل ترغب في تناول القهوة؟

(ب) القهوة تسبب لي ارتجاعا.

تبدو الإجابة (ب) غير مناسبة لسؤال (أ)، نتوقع أن تكون الإجابة بنعم أو لا غير أن (أ) هنا أدرك ما يريد (ب) قوله من خلال الاستدلال، حيث يشكل القول " القهوة تسبب لي ارتجاعا " معرفة يجدها مخزنة في الذاكرة، و بالتالي يكون الجواب المقصود " لا أريد شرب القهوة لأنني أخشى تهيج المريء و ارتجاعه و هو ما يتوقف أيضا على معرفة أحوال المخاطب.

و هنا نتكلم عن إدراك قصدين للمرسل: قصد إخباري (informative intention) وهو القصد الظاهر في القول (القهوة لها تأثير سلبي على المريء)، و

قصد تواصلية (communicative intention)، يهدف المتكلم من خلاله إلى تبليغ معلومة غير ظاهرة في صيغة الكلام. والتوصل إلى هذا القصد لا يمكن أن يحدث بمعزل عن السياق الذي يحتوي على عدة معلومات نجدها منتظمة تحت عناوين التصورات أو المفاهيم التي يتحصل عليها تدريجيا وفق عامل الزمن، حيث تعتمد عملية التأويل على الأقوال السابقة مباشرة للقول والمحيط الفيزيائي الذي وقع فيه (المقام) التواصل، ذلك أنها لم تُنسَ ولم تُخزن بعد في الذاكرة البعيدة. ونشير هنا أن الذهن يحتوي على ثلاثة أنواع من الذاكرة: (موشلر و ريبول، 2010، صفحة 144)

أ. ذاكرة قصيرة المدى و توافق المحيط الفيزيائي و تركيب الجمل.

ب. ذاكرة متوسطة المدى يخزن فيها تأويل الأقوال السابقة مباشرة.

ت. ذاكرة بعيدة المدى تحتوي على معلومات حول المفاهيم المخزنة مع الوقت.

و هذه الأصناف الثلاثة تشكل للمتلقي محيطا عرفانيا يأخذ منه ما يحتاج لتأويل مختلف الخطابات التي يواجهها.

2.2.4. النموذج العرفاني في تأويل الأقوال و صنع الانسجام عند سبربر و ولسن:

تركز نظرية الملاءمة في تفسير عملية التلقي و الانسجام على المعطيات الموجودة في ذهن المتلقي التي تمثل معارفه حول العالم كونها تكتسب عبر مراحل وفق التجارب اللسانية المختلفة التي مر بها سابقا، وهذه المعطيات تشكل ما يسمى بالسياق عند سبربر و ولسن. وهذا يجعل النظرية تصنف ضمن تيار علم النفس المعرفي و تيار المنظومية المقترح من قبل جيرى فودور (Jerry Fodor).

يرى فودور أن الذهن البشري يشغل بشكل تراتبي، حيث تعالج فيه المعلومة مهما كان مصدرها (مرئي، سمعي، بصري، لغوي..) عبر مراحل متتابعة، و تقابل كل مرحلة مكونا من مكونات الذهن، وهي: المحولة/ الناقلات المترجمة (transducers) و النظام الطرفي (peripheral system) والنظام المركزي (central system). يتلقى الإنسان المعلومة من خلال سماع صوت أو رؤية صورة أو سماع قول ما، عندئذ تعالج هذه المعطيات المدركة حسيا في المحولة التي تترجمها إلى أنساق. و في مرحلة مواءمة تعالج هذه الترجمة بواسطة نظام طرفي، بحيث أن لكل معطى حسي نظام مختص بمعالجته، و من ثم يوجد نظام مختص بمعالجة المعطيات اللغوية الذي يقوم بتأويلها أوليا تأويلا ترميزيا (صوتيا، صرفيا، نحويا، دلاليا) (موشلر و ريبول، 2010، صفحة 135)، وتنتج الأنظمة الطرفية حسب فودور تمثيلات الأشياء في العالم. و في الأخير يشغل النظام المركزي على المعطيات التي توفرها الأنظمة الطرفية من أجل معالجة المعطيات التي ينتجها التحليل اللساني من أجل تأويلها حسب ما يقتضيه السياق وتوصل إلى المعنى المقصود أو الضمني.

عند تلقي القول، يبدأ المتلقي -حسب سبربرو ولسن- من افتراض المناسبة أي يتوقع أن الخطاب الذي يتلقاه مناسباً. ويستلزم مبدأ المناسبة أن يفصح المتكلم عن نيته في جعل مجموعة من الافتراضات بيّنة ليصل إلى القدر الأقصى من المناسبة لقوله. وكلما أنتج هذا القول أثراً سياقية أكثر كان القول أكثر ملاءمة، وكلما تطلب التأويل مجهوداً أقل كان القول أكثر إفادة، وكلما زاد الجهد الاستدلالي، قلت مناسبة. فالمناسبة إذن في النظرية هي مسألة جهد (لبناء الفرضيات) و نتائج.

و النتيجة كما تم الإشارة إليه آنفاً، إضافة فرضيات جديدة لذهن المتلقي يستعملها كسياق لأقوال لاحقة، أو تغيير في الفرضيات الموجودة كون الجديدة أكثر إقناعاً، أو إلغائها إذا كانت تناقض الفرضيات الموجودة.

(8)

ستكون السماء غدا غائمة و الأمطار غزيرة.

تُفترض المناسبة في المعلومات التي تقدمها الجملة، و سيعمل المتلقي على تأويلها وإكسابها دلالة باستعمال مجهود استدلاي. فالجملة تحمل قصداً إعلامياً، و هو الموجود في الصيغة المنطقية للجملة (وجود غيوم في السماء و الأمطار غزيرة)، يُبلّغ بواسطتها مقصد تواصلية و هو ما يرغب المرسل تبليغه للمتلقي. أي تُقدّم للمتلقي معطيات جديدة، يقدّر حصادها بناء على الفرضيات/ السياق المتوفر عنده في الذاكرة، الذي يُستدل به لمعرفة أن المرسل يريد لفت انتباهه إلى تغير الجو الذي يقتضي منه اتخاذ احتياطات كاللباس و المظلة و خطورة الصيد- في حالة خاصة- في أعالي البحار.

إذن عملية التلقي و صنع الانسجام عند أصحاب نظرية الملاءمة هي عملية ذهنية معقدة، يتدخل فيها عامل السياق الذي لا يمثل عندهم معطى جاهزاً، و إنما يُبنى قولاً بعد قول بفضل الفرضيات المتوفرة في المعنى الظاهر للخطاب و المعرفة المشتركة و الفردية للمتلقي بداية بالمعطى المخزن حديثاً في الذاكرة القريبة مروراً بالنظام الطرفي الذي يحول المعلومة إلى مفهوم يستغل في معالجة المعلومة الجديدة من طرف النظام المركزي وبالتالي تأويل الخطاب، و بقدر الجهد تكون الملاءمة. و تشكل هذه المعلومة الجديدة فرضية جديدة تعالج وفقها الأقوال اللاحقة، وبقدر أهميتها يكون الأثر السياقي.

5. خاتمة:

ركزنا في هذا البحث على الجانب العرفاني للتلقي في العملية التواصلية و كيفية إدراك المتلقي انسجام النص الذي يواجهه مشافهة أو كتابة، حيث يعتبر النص رسالة يحاول منتجها كاتباً أو متكلماً إيصالها إلى متلق معين أو غير معين مستمعاً أو قارئاً لإبلاغه محتوى يحمل مقصداً معيناً. هذا يعني أن الحكم على انسجام النص من مهام المتلقي وليس موجوداً في النص في حد ذاته، بل يتم تأويله حسب السياق الذي يتكون في ذهن المتلقي و يتم استغلاله لتأويل نصوص جديدة بناء على مبدأ التشابه أو

مبدأ التأويل المحلي. ويقوم السياق بحصر عدد التأويلات و بالتالي ضبط المعنى المقصود.

قمنا بعرض دراستين حاول أصحابها تفسير الكيفية التي يتم بها تأويل النصوص والأقوال لصنع انسجامها، ركزت كل منها على الجانب العرفاني، تمثلت الأولى في مقاربة براون و يول، حيث وجدت أن المتلقي يبدأ التأويل بافتراض الانسجام في النص و يستعين بالخبرة السابقة في تلقيه، يستدعي المعلومة المطلوبة المخزنة في ذاكرته من أجل فهم النص الحالي إضافة إلى السياق الاجتماعي و الثقافي و معرفة المتكلم و كل ما يساعد في بناء انسجام النص.

أما نظرية الملاءمة فربطت مفهوم التلقي بالسياق و الأثر السياقي، فالمتلقي يعتمد على السياق الذي يمثل مجموعة المعطيات المخزنة في الذهن و المنتظمة في شكل عناوين لمفاهيم يستدعيها الذهن من أجل فهم الأقوال، و كلما أحدث السياق اللاحق أثرا معرفيا حكم المتلقي بمناسبة القول، ويخزن السياق الجديد من أجل استدعائه في تجارب لسانية جديدة. فالسياق إذن عند براون و يول و سبربر و ولسن يعتمد على المعلومة المخزنة في الذاكرة التي تم اكتسابها سابقا.

ينتقل المتلقي من المعنى الظاهر في الصيغة المنطقية للجملة إلى المعنى المتضمن فيها وهو المقصود من التواصل الذي يمثل الفعل اللغوي، و يتمكن المتلقي من فهم الفعل اللغوي المقصود بالاستدلال وفق مخزونه و المعرفي و الجهد المعرفي الذي يبذله، و هو الضامن لنجاح عملية التواصل. وهناك ضرورة لاستغلال العلوم الأخرى كالتداولية و علم النفس المعرفي و اللسانيات الاجتماعية وغيرها من أجل التحليل الجيد للنصوص والتفسير الصحيح لعملية التلقي.

إن دراسة التلقي العرفاني للنصوص و شرح العمليات الذهنية الكامنة وراء عملية التلقي و التأويل هي ما يستغل اليوم في الذكاء الاصطناعي من أجل معالجة النصوص معالجة آلية و هو ما يستغل أيضا في مجال الترجمة الآلية مثلما هو موجود اليوم في التطبيقات الجديدة مثل Chat Gpt و Perplexity ولعل هذا يفتح آفاقا في البحث واستحداث تطبيقات خاصة باللغة العربية و ترجمة النصوص منها وإليها.

7. المصادر و المراجع

العومعدنان يوسف . (2004). علم النفس المعرفي النظرية و التطبيق. دار المسيرة للطباعة و النشر و التوزيع.

إبراهيم الفقي. (2000). علم اللغة النصي بين النظرية و التطبيق (الإصدار ط1، المجلد ج1). القاهرة: دار قباء للطباعة والنشر و التوزيع.

أحمد عفيفي. (2001). اتجاه جديد في الدر النحوي (الإصدار 1). القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.

- برينكر كلاوس. (2005). *التحليل اللغوي للنص مدخل إلى المفاهيم الأساسية و المناهج*. (تر: سعيد بحيري، المترجمون) القاهرة: مؤسسة المختار للنشر والتوزيع.
- دريسler و ديبوغراند. (1992). *مدخل إلى علم لغة النص* (الإصدار ط1). (تر: إلهام أبو غزالة و علي خليل حمد، المترجمون) نابلس: مطبعة دار الكتاب، مركز نابلس للكمبيوتر،.
- فيهقجريدتر و فولفجانج. (2004). *مدخل إلى علم لغة النص*. (تر: سعيد حسن بحيري، المترجمون) القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
- محمد خطابي. (1991). *لسانيات النص، مدخل إلى انسجام النص*. بيروت: المركز الثقافي العربي.
- محمود بن عمر الزمخشري. (2009). *الكشاف*. بيروت لبنان: دار المعرفة.
- مفتاح بن عروس. (1999). *في علاقة النص بالمقام، "في علاقة النص بالمقام. مجلة اللغة و الأدب (14)، 291-334*.
- موشلر و ريبول. (2010). ، *القاموس الموسوعي للتداولية* (الإصدار ط2). (تر: عز الدين المجدوب وآخرون، المترجمون) تونس: دار سيناترا المركز الوطني للترجمة.
- Adam, J.-M. (2005). *La linguistique textuelle, Introduction à L'Analyse textuelle des Discours*. Paris: Armand Colin.
- Bracops, M. (2006). *Introduction à la pragmatique, Les théories fondatrices : Actes de langage, pragmatique cognitive, pragmatique intégrée* (éd. 1). Université Bruxelles.
- Brown, G and Yule, G. (1984). *Discourse Analysis* (éd. 1st). Cambridge UK: Cambridge University Press.
- Charolles, M. (1978). , *Introduction aux problèmes de la cohérence des textes, Approche Théorique et études des pratiques pédagogiques, Langue Française, Enseignement du récit et cohérence du texte*. (38).
- Dijk, Van. T. A. (1977). *Text and Context, Exploration in the semantics and pragmatics of discourse*. London and New York: LONGMAN.

Halliday M.A.K and Hasan Ruqaiya. (1976). *Cohesion in English*. London: LONGMAN.

Jeandillou, J.-F. (1997). *L'Analyse textuelle*. Paris: Armand Colin.

Lundquist, L. (1980). *La cohérence textuelle : Syntax, Sémantique, Pragmatique*. Kobenhavn: Nyt Nordisk Forlag Arnold Busk.

Sperber, D et Wilson, D. (1989). *La pertinence, Communication et cognition*. (A. Gerschenfeld, Trad.)